عنوان المحاضرة الثالثة: جدل الحداثة في الشعر

الأستاذة: خالص زهرة

لقد مضى ردحا من الزمن على الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان

ما الذي حققته الحداثة؟ وما هي جدليتها الآن؟ الحداثة الشعرية وأي جديد؟

ولعل ما يميز الحداثة الشعرية بصفة عامة هو أن يكون المعنى في المقام الأول من اهتمام الشاعر وأن الصورة الشعرية التي تعبر عن ذلك المعني يجب ألا تكون تحت نظام التفعيلات، فراح جمهور من النقاد يبحثون في شكل القصيدة الجديدة من حيث إتباعها النمط التراثي من عدمه.

إن مقولة الحداثة الشعرية تغدو بنا في البداية إلى القول بكفتي ثنائية الدلالة والصياغة، وباقترانهما تتحقق الحداثة في الشعر. وعندما نقول الدلالة والصياغة فإننا نقول المضمون والشكل وإذا كان الشكل جزءا لا يتجزأ من المضمون، فليس من شك في أن شكل القصيدة القديمة لا يصلح بصورته التقليدية للتجربة الجديدة. ولعل ما يفسر عدم اعتماد الشعر الجديد على نظام البيت الشعري القديم هو المضمون الجديد، الذي يقوم أساسا على الصورة المركبة التي تجتمع فيها الأقصوصة، والحوار، والأسطورة، والاقتباس، وتجسيد المواقف، وتغيير الحالات النفسية المفاجئة. ومن ثم أصبح الشاعر الحديث يختار لنفسه زاوية ينظر فيها إلى الحديث والموقف الجديد برؤية مغايرة عن الموضوع القديم، فالجديد هنا هو الزاوية التي ينفذ منها

الشاعر إلى الموضوع، والشاعر الحديث أو المعاصر لا يريد أن يعيد الماضي فيصوره، وإنما هو يمزجه بالحاضر كما يختلط الحاضر بالماضي فالرؤية واحدة، وهذا ما يقتضي صياغة أو لغة إن صح القول جديدة. أما الصياغة فكثيرا ما ترتبط بمدى إمكانية الشاعر في إبداع شكلنة وصورنة جديدة في أسلوبه الأدائي، وبهذا يبتعد عن التقيد بأنماط سائدة متوارثة مألوفة. وأكثر توضيحا للحداثة في الصياغة فهي تبين في البناء اللغوي وخاصة في نوعية الألفاظ والعلاقة بينهما، سواء على مستوى الربط أو على مستوى نوعية المجازات، ومن ثم تتمظهر الخصائص الفنية الأسلوبية التي يصوغ بها الشاعر مادته اللغوية مقولبة في جهاز أدائي حداثي، يمثل عصارة إزدواجية من حيث التركيب وتوليد الدلالات.

وفي هذا السياق وضح عبد السلام المسدي قضية الحداثة في الشعر على أنها ترسخت يوم فجرت قوالب الصوغ وابتعثت مسالك جديدة في الأداء التعبيري مما استقام به من ابتكار موازين غدت عيارا للشعر الحديث. وعندما نقول الصياغة ضمنيا نقول اللغة، فهي الأساس في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير، فقد صار من الواضح أن شعر هذه التجربة يتعامل مع اللغة تعاملا خاصا وجديدا كما يتعامل مع ظواهر الحياة نفسها بنفس المنهج، وليس هذا بغريب إذ لكل عصر همومه ومشاكله وقضاياه. فلا مناص على الإنسان في مطالبه أن يواجه الحياة بما يلائمها من سلوك، وإذا كان الإهتمام بهذه اللغة الجديدة نستحضر ضمنيا الكلمة، فما عاد الشاعر المعاصر يحس بها على أنها مجرد لفظ صوتي له دلالة أو معنى أعمق، وإنما صارت الكلمات تجسم وبصورة حية الوجود. ومن ثم التحمت اللغة بنبض الحياة في منظور الشاعر وهذا ما سيشكل المعاناة الفكرية للشاعر من حيث تعامله مع اللغة وقد تحدث عن هذا شلة من الشعراء الرواد في الشعر العربي المعاصر، مثل صلاح عبد الصبور، والبياتي، والسياب، وأدونيس.

استطاع أدونيس أن يشتق لنفسه لغة خاصة، وأن يكون لنفسه عبر دواوينه المختلفة معجما شعريا واضح التمييز، وهو قبل كل هذا من أشد الشعراء المعاصرين المهتمين بمشكلة اللغة، ووعيا بها. وهذا يتمظهر في مدى العلاقة الخاصة بظروفها المعاشة في الوقت الراهن وبأفكارنا وتصورنا ومنهجنا وآرائنا وكيفية التعامل مع مشكلاتنا وبكل ما يمثل الجوانب الروحية والمادية في حياتنا.

إن قلب الشعب ينبض في لغته، وروح الشعب تكمن في لغة الأدباء والأجداد، فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها وجودا مميزا قائما بخصائصه، فهي قومية الفكر تتخذ بها الأمة في صور التفكير، وأساليب أخذ المعنى من المادة والدقة في تركيب اللغة دليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأساليب والعلل. وبهذا فقد اغتنت القصيدة المعاصرة بقاموس جديد تلاقفه الشعراء في أول وهلة، وقد نادى شاعر عباسي كبير هو أبو العتاهية بما كان سينادييه "ت.س إليوت" بعد أحد عشر قرنا، نادى بضرورة عدم الفصل بين لغة الشعر ولغة الحياة.

وما يلاحظ أيضا على شعر هذه المرحلة مسألة الاقتصاد في العبارة، وبلورة الصورة، وعدم استعمال أية كلمة لا تخدم الصورة، وهذا ما يفسر معالجة الشيء بشكل مباشر ذاتيا كان أم موضوعيا، واستخدام الكلمة للغرض المناسب. وهذا التطور هو ما فتح أمام الشاعر العربي مجالا جديدا في التعبير، وإن كان هذا لا يعني أن الشاعر العربي يجد الكتابة بهذه الصورة أسهل من الكتابة بالأسلوب التراثي فالشعر الحر ليس أسهل من الشعر التراثي الموزون المقفى عندما يستعمل بشكل صحيح.

ومثلما ذكرنا آنفا اللغة كطرف في ثنائية الحداثة الشعرية، لننتقل إلى النقطة الثانية ألا وهي المضمون أو الصورة في الشعر الجديد، فالدلالة تنطلق من لب المعاني ولا شك في أن الحداثة في المضمون تعني سعي الشاعر إلى معالجة الأغراض الفنية التي تحرره من تبعية التواتر المألوف، وهذا الركن من مقولة الحداثة الشعرية كثيراً ما أثار المعاول النقدية وخاصة عندما اتصلت به قضية الالتزام في الأدب وبهذا

أصبح كل من الحرف والكلمة أداة من أدوات الصراع في كل معركة يخوضها الإنسان. ومن ثم فلطالما اقترنت الحداثة بمدى ضرورة إسهام الشاعر في النضال الإنساني عبر قضاياه الفردية والجماعية. إن الصورة في الشعر الجديد تعتمد على عقلية مختلفة، عقلية إنسان العصر الحديث الذي كان لتفوق العلم واختلاف الثقافات تأثيره الواضح على ذهنيته والتجربة الشعرية الجديدة تترك للشاعر الحرية في أن يخوض عوالم متباينة بعضها من داخل نفسه. لقد تعددت مضامين وصور القصيدة الجديدة، وتنوعت ما بين المواضيع الاجتماعية والثقافية وغيرها. ولكن أكثر ما تجلت في المواقف السياسية من العالم عموما، والقومية العربية خصوصا. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على مسايرة الشعر المعاصر للقضايا الإنسانية بصفة عامة والوطنية بصفة خاصة، فالشعر رسالة إنسانية تعكس من خلالها صورة الأمة، وكثيراً ما كان للموقف السياسي دور فاعل وفعال في استقطاب ردود فعل الشعراء وفي مدى اختيارهم للأدوات التعبيرية والشكلية، والتركيبية للشعر الجديد. وقد سايرت هذه المضامين جل نكبات العرب فمثلا ما أصاب الفلسطينيين من تشرد في أرجاء الوطن العربي، والعالم كله، أدى ذلك إلى شق الطريق لشعر حديث ومعاصر ذا نكهة فلسطينية تفوح منه شذا الحرية، وما يلاحظ على الصورة السياسية أنها اقترنت بالأسطورة، فالسياسة هي الوريثة الشرعية للأسطورة فهي ما زالت تحافظ على الحمولة الوجدانية كاملة، وهذا ربما ما دفع عدد من الشعراء مثل السياب لتبني هذا المنهج.

لقد التحمت لغة الشعر مع الوجود ومع نبض الحياة، وهو ما يستنفذ من جهد الشاعر المعاصر ويشكل القدر الأكبر من معاناته للغة. وقد حدثنا معظم رواد الشعر عن هذه المعاناة منهم صلاح عبد الصبور، والبياتي، والسياب، وأدونيس وغيرهم، وقد أدرك هؤلاء الشعراء أن الكشف عن الجوانب الجديدة في الحياة يستدعي بالضرورة الكشف عن لغة جديدة، إذ ليس من المعقول ولا من المنطق التعبير باللغة القديمة عن التجربة الجديدة.

إن الحداثة الشعرية أصبحت تؤمن بالإنسان والمستقبل وبإرادة التغيير والبناء، وتحاول أن ترمم الهوة التي تفصل الشاعر عن الواقع والمجتمع والإنسان، ولكن دون أن تربط الشاعر بمفردات الواقع وتفاصيله الدقيقة، بل عن طريق ضمان ترك مسافة جمالية بين الشاعر والواقع، وهي لا تقوم على اصطناع المواقف. بعد هذه الإطالة القصيرة نقول: هل ثمة بين الأشكال الشعرية الجديدة حوار؟ وما نحسبه إجابة هو" نعم " إذ أن الشاعر ما يزال يتحاور مع الأشكال بحثا عن شعرية أفضل، لعل الحوار بين الأشكال الجديدة دليل على أن الشعر العربي المعاصر يتمتع بالعافية.

-المراجع:

- الشعر ومتغيرات المرحلة: حول الحداثة وحول الأشكال الشعرية الجديدة، تأليف: عبد الواحد لؤلؤة، سلمان الواسطي، عبد السلام المسدي، فاضل ثامر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1986م.

-محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، 1986م.

-عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت،2007م.